4- التيارات الأنثروبولوجية:

من أهم هذه التيارات الأنثروبولوجية نجد: التيار التطوري، التيار الانتشاري التاريخي، التيار الوظيفي والتيار الثقافي... وتركز هذه التيارات على تفسير سلوك الإنسان وعوامل ترابط أو تفكك المجتمع ودراسة تطوره والبحث في تفسير عوامل الاختلاف من مجتمع لآخر.

4- 1- التيار التطوري:

يعتبر ظهور كتاب "شارل داروين" في عام 1859 "أصل الأنواع" والذي قدم تفسير أصل الأنواع وبأنها غير ثابتة بل متحولة ومتغيرة، تطورت عن أنواع أخرى، ولقد شرح "داروين" في كتابه مفهوم التطور ولخصه في أن جميع الأنواع قادرة على إنتاج نسل بصورة أسرع مما هو عليه الحال بالنسبة إلى الزيادات في إنتاج الطعام، كما أنه تظهر لكل الكائنات الحية تنوعات وأن هذه التنوعات تنتقل بالوراثة من جيل لآخر، وأن الأنواع الناجحة تنتج على مدى فترات من الزمن الجيولوجي اختلافات تؤدي إلى ظهور أنواع جديدة، وبالتالي فان تنوع الأفراد هو ما يفسر كيفية حدوث التغيير.

التيار التطوري بمفهوم "داروين" يرى أنّ العوامل الرئيسية في تطور الكائنات الحية هي التحول والوراثة والاصطفاء الطبيعي الأصلح بين الكائنات الحية هو وحده الذي يبقى ويتكاثر في الصراع من اجل البقاء تحت تأثير البيئة الخارجية، فكان ظهور هذا الكتاب بداية لتفكير توجيهي جديد، ليس في النبات والحيوان فقط، بل في الاجتماع والاقتصاد والدين والسياسة .

بالإضافة إلى "شارل داروين" يعتبر "هاربرت سبنسر" واحد من رواد الفكر التطوري وهو مهندس وأديب وفيلسوف وعالم اجتماع انكليزي، وقد كانت لإعماله تأثير كبير في علم الاجتماع الانكليزي والأمريكي. وصف "سبنسر" المجتمع بأنه ينمو وتتعقد أجزاؤه ويصبح أكثر تخصيصا وتقسيما كلما تطور. وقسم "سبنسر" المجتمع إلى نوعين مجتمعات عسكرية يكون فيها التعاون إلزاميا، في حين القسم الأخر وهو المجتمعات الصناعية وصفها بأنها تعتمد على تعاون اختياري.

ويعتبر الأنثروبولوجي الأمريكي "لويس هنري مورغان" من رواد المدرسة التطورية حيث درس "عصبة الايروكيز" حيث قام مورغان بدراسة هنود الايروكيز وأيضا سكان الشمال الشرقي الأمريكي. وفي هذا البحث أوضح "مورغان" أنّ النظم السائدة عند الايروكيز هو النظام الاموي أي أن الأم هي أساس قيام العشيرة. وقد اهتم مورغان بنظام القرابة والتنظيمات الاجتماعية.

اصدر مورغان كتابه Kinship بما يسمى بـ"أنظمة القرابة و المصاهرة في العائلة البشرية" الذي استطاع من خلاله إثبات أن علاقات القرابة هي التي تسيطر على تاريخ الإنسان البدائي وأوضح أن هذه العلاقة لها تاريخ ومنطق.

ادوارد "برنت تايلور"(1883_1917) عالم بيولوجي من رواد الأنثروبولوجية التطورية، يعتبر من الأوائل الذين قدموا تعريفا لمفهوم الثقافة وقد اعتبرها من العناصر الأساسية لفهم تاريخ الإنسان، كون الثقافة ظاهرة تاريخية يكتسبها الإنسان كما يكتسب مهارات أخرى. ويرى "تايلور" بأنّ دراسة الثقافة هي دراسة تاريخ تطور الفرد في المجتمع لكونها عملية تاريخية عقلية لتطور عادات الإنسان عبر مراحل من الحالة البسيطة إلى الأكثر تعقيدا. وبالتالي فانه يتفق مع "مورغان" من حيث انتقال الثقافة غير أنه لا يتفق معه من حيث إلزامية المرور على الوحشية ثم البربرية فالمدنية، ويرى

بأنّ الثقافة تمر من مرحلة أدني إلى مرحلة أعلى. كما أنه يرى بأن الثقافة تتصف بالانتشار أكثر من التطور بحيث أن الإنسان قام باكتساب ممارسات جديدة عن طريق الآخرين أكثر من تلك التي اخترعها بنفسه.

يعتبر التيار التطوري من التيارات الأولى التي سعت إلى تفسير وفهم تطور حياة الإنسان الاجتماعية فقد فسر أسباب التنوع الثقافي وقيام الحضارات فهي تقوم على أساس فكرة التقدم الانساني، وتطور الثقافات وفق مراحل محددة. أي أن المجتمعات خلال عملية التطور تنتقل من الحالة البسيطة البدائية وصولا إلى الحضارة المدنية.

غير أنّ هذا التيار تعرض إلى الكثير من الانتقادات وأثبتت محدوديتها حيث أنها تعتمد على مجموعة من الفرضيات فهي تعتمد على التاريخ كمنهج للدراسة من ناحية افتراضية غير مبنية على حقائق ووثائق واقعية، فالباحث يستند على فرضيات لينتقل إلى الاستنتاج وقد تكون هذه الفرضيات عبارة عن تخمينات وهمية. ولهذا بدأت هذا الاتجاه في الاضمحلال تدريجيا مما سمح لظهور الاتجاه الانتشاري الذي ظهر إلى جانب الفكر التطوري.

4- 2- التيار الانتشاري:

يقوم التيار الانتشاري على فكرة ان الحضارة الإنسانية ترجع كلها إلى مصدر واحد، ومنه انتشرت إلى أماكن أخرى من هذا العالم. ويفترض رواد هذا التيار ان الاتصال والاحتكاك بين الشعوب هو الذي يؤدي إلى انتشار بعض السمات الثقافية بين المجتمعات المختلفة، وهذا ما يفسر التباين والاختلاف الثقافي بين الشعوب، ورغم ان أبقى على الاعتماد على استخدام التاريخ لتفسير الظاهرة الا انه يرجع ظاهرة التباين إلى الاتصال بين الشعوب وليس عن طريق التطور من مرحلة إلى اخرى. يعرف التيار الانتشاري بالتيار التاريخي إلى قسمين: الاتجاه التاريخي التجزيئي والاتجاه التاريخي النفسي.

أ_ التيار التاريخي التجزيئي

تبنى هذا الاتجاه منهج تاريخي جغرافي متأثرا بالمدرسة الجغرافية الالمانية ،حيث يعتبر الالماني "فردريك راتزل" من رواد هذه المدرسة، يركز "راتزل" على اهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية بين الشعوب و دورها في النمو الحضاري وتبعه في ذلك تلميذه "هوينريخ شورتز" الذي أبرز فكرة وجود علاقات حضارية بين العالم القديم (إندونيسيا وماليزيا) والعالم الجديد (أمريكا). وكذلك "ليوفرو بينيوس" صاحب الانتشار الحضاري بين إندونيسيا وأفريقيا.

يقوم التيار التاريخي التجزيئي على مبدأين هامين:

اولا: إن عملية الاتصال تتم عن طريق الاحتكاك الثقافي المباشر وغير المباشر.

ثانيا: إن الرحلات التجارية والاستكشافية وأيضا الحروب الاستعمارية ساهمت في عملية انتشار بعض الخصائص والسمات الثقافية.

وعلى هذا الاساس إن الاتصال بين الشعوب أدى إلى انتشار الخصائص الثقافية عبر الزمان إلى أجزاء مختلفة من العالم.

وعلى على الأساس نشأ تياران مختلفان لتفسير الانتشار الثقافي:

ظهرت في انجلترا التيار الانتشاري التي تعتمد على الأصل المركزي الواحد لنشأة الحضارة، أي أن مصدر الحضارة هو مركز واحد. ومنه تم الانتشار إلى مجتمعات انسانية عديدة في كل انحاء العالم وأن هذا الانتشار كان بفعل عوامل متعددة كالتجارة أو الهجرة والحروب .

من رواد هذا التيار عالم التشريح "اليوث سميث" وتلميذه "وليم بيري" اللذان أرجعا أصل الحضارة الإنسانية إلى مركز واحد و هو مصر القديمة حيث أن الحضارة ازدهرت على ضفاف نهر النيل ومن ثم انتقلت إلى بقية اجزاء العالم التي كانت عاجزة عن تحقيق التقدم الثقافي والابتكار الحضاري بعدما توفرت الظروف المناسبة للانتشار.

أما التيار الثاني فقد رفض فكرة المنشأ الواحد للحضارة الإنسانية، وافترض وجود عدة مراكز حضارية انسانية في جهات متفرقة من العالم. هذا التيار يفترض أن الأصل الثقافي متعدد المراكز عوض احادية المركز، حيث اعتبروا أن التيار الانتشاري للثقافة مثلا من مركز واحد لا يقوم على ركائز علمية وانما هي ضرب من الخيال، يعتبر الألماني "ويليام شميدت" والنمساوي "فريتز جرايبنور" من دعاة هذا التيار، فقد رفضا فكرة المركز الواحد وافترضا وجود عدة مراكز حضارية. وبالتالي فان هذا التيار يقر بان الانتشار الثقافي يتم عبر اتصال الشعوب ببعضها البعض من خلال مراكز متعددة والتي اطلق عليها اسم الدوائر الثقافية.

كبقية الاتجاهات واجه الاتجاه التاريخي التجزيئي انتقادات شديدة. كونه لم يستطع تقديم أي تفسير علمي بحيث قد يخطئ الباحث في تحديد المركز الحقيقي لأصل الشكل الاقدم تاريخيا. ومن ثم بدأت فكرة توسيع المفهوم التاريخي في دراسة الثقافات.

ب_ الاتجاه التاريخي النفسي:

ظهر الاتجاه التاريخي النفسي متأثرا بمدرسة علم النفس وما حققته من نتائج ، ولاسيما العام النفسي "سيغموند" فرويد وأرائه حول انه يمكن فهم الثقافة من خلال التاريخ بالاستعانة بمفهومات علم النفس. كما أنه بحسب اعتقاد هذا الاتجاه أنّ دراسة التاريخ، بوقائعه وأحداثه، لا تكفي لتفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية، وذلك لأن الظاهرة الثقافية تجمع بين ما هو مكتسب وماهو سيكولوجي نفسي، وأنّ أية سمة من السمات الثقافية، تضم مزيجا من النشاط الثقافي والنفسي بالنسبة لبيئة معيّنة.

ويعتبر كتاب " أنماط الثقافة " الذي نشرته "بيند كيت" عام 1932، البداية الحقيقية لبلورة الاتّجاه التاريخي النفسي في دراسة الثقافات الإنسانية. حيث أوضحت الدراسة أنّه من الضرورة النظرة إلى الثقافات في صورتها الإجمالية، أي كما هي في تشكيلها العام. وذلك لأن لكل ثقافة مركز خاص تتمحور حوله وتشكّل نموذجا خاصا بها، يميزها عن الثقافات الاخرى.

لقي هذا الاتجاه معارضة من طرف الأنثروبولوجيون في أمريكا وأيضا الأنثروبولوجيون في انجلترا إلا أن هذا الاتجاه التاريخي النفسي وجد فرصة للانتشار بعد ظهور المفاهيم النفسية التي قدمها عالم النفس "سيغموند فرويد" بخصوص تحليل العلاقات القائمة بين الثقافة والفرد وتأثير كل منهما على الآخر.

4- 3- التيار الوظيفي:

فكرة الوظيفة هي فكرة قديمة وجدت تعبيرا لها في أعمال الفلاسفة والمفكرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. اقترن الاتجاه الوظيفي بصورة أساسية بالأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا بأسماء "مالينوفسكى"، و"رادكليف بروان". على عكس ما كان في القرن التاسع عشر من ناحية دراسة المجتمعات والثقافة دراسة تاريخية يرى "مالينوفسكي" أن ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية للإفراد والتي يميزها "مالينوفسكي" على أنها: التغذية، الإنجاب، الراحة، الأمان، الاسترخاء، الحركة والنمو...وحتى تستمر الثقافة في أداء وظيفتها من ناحية إشباع الحاجات الأساسية للإنسان

يرى "مالينوفسكي" وجوب توفر اللوازم المادية وأيضا لابد من وضع نظم وقواعد واجبة للاحترام، وأيضا وجوب تقسيم العمل على أساس الجنس والسن مما يؤدي إلى نشأة تنظيم اجتماعي منظم يتميز بالاستقرار.

أما بالنسبة إلى "رادكليف براون" وهو من مؤسسي المدرسة البنائية فقد قام بدور مهم في بلورة ودعم الفكر البنائي في الدراسات الاثنولوجية. إذ نادى بالتوجيه نحو الدراسات المتزامنة والابتعاد عن الفكر التطوري وفرضياته التاريخية، غير انه من جهة اخرى يختلف مع "مالنوفيسكي" الذي ينظر إلى الثقافة من منظور سيكولوجي.

واتجه "رادكليف براون" إلى دراسة المجتمع و تفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرا اجتماعيا بنائيا وظيفيا، فاتبع اسلوب المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية، أي انه ماثل بين بناء الجسم الانساني الذي وصفه بانه متماثل وكامل فان المجتمع ايضا له تركيب وبناء اجتماعي متناسق ومتماسك يتكون من الافراد اللذين يرتبطون ببعضهم البعض عن طريق علاقات اجتماعية مقررة.

على عكس "مالنوفيسكي" الذي أوضح كيف لمجموعة من العادات والنظم الاجتماعية التي تعمل لتفي بالاحتياجات الجسمية والنفسية، فان "براون" وجه بحوثه نحو مسألة تماسك النظام الاجتماعي وكيف يمكن الحفاظ على مجتمع متناسق ومتماسك.

5- النظريات الأساسية في الأنثروبولوجيا:

5- 1- نظرية الاتصال الثقافي (التثاقف والمثاقفة):

لعل من أفضل تعريفات عملية التثاقف هو ما قدمه" هرسكوفيتز" بالاشتراك مع زميليه "رالف لينتون" و"روبرت ردفيلد". ويتضمن هذا التعريف أن التثاقف يشمل التغير الثقافي في تلك الظواهر التي تنشأ حين تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة في اتصال مباشر مستمر .

معهما مما يترتب عليه حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في إحدى هاته الجماعات أو فيهما معا.

في أمريكا، تعدّ الباحثة الأمريكية "ماغريت ميد" الرائدة الأولى في تبنّي الاتجاه التواصلي (التثاقفي) في دراسة التغيير الاجتماعي الثقافي. فقد أجرت ميد في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين دراسة على مجتمع من الهنود الحمر في أمريكا، ومدى تأثّره بالمستعمرين البيض، من خلال احتكاكه بهم، ولاحظت الاضطرابات التي حصلت في الحياة الاجتماعية التقليدية عند الهنود الحمر نتيجة لذلك فقد كان مجتمع الهنود الحمر في فترة الدراسة، يعيش حالة من الصراع الشديد، بين الأخذ بالثقافة الجديدة الوافدة، وبن الثقافة القديمة التي اعتاد عليها، ولا سيّما أنّه لم يكن قد تكيّف بعد مع الأوضاع الجديدة.

وفي المقابل، وجدت "ميد" أيضاً، أنّ المستعمرين البيض لم يهدفوا إلى التبادل (التفاعل) بين الثقافتين، وإنّما أرادوا للهنود الحمر أن يندمجوا في ثقافتهم بصورة كاملة. وعلى الرغم من موقف البيض هذا، فلم يسمحوا للهنود الحمر أن يشاركوا في أنشطتهم، أو أن يتعاملوا وإياهم على قدر المساواة . وقد تمّ اللجوء إلى الطرق المقرّرة التي استطاع علماء الأنثروبولوجيا بوساطتها، النفاذ إلى العناصر الثقافية الكامنة تحت الأشكال الثقافية، لكي تزوّدهم بأساس لتقريب السياسة التي ستضع إدارة شؤون الهنود في أيدي الهنود أنفسهم. وعهد للمكتب الخاص بالهنود،

وفي أوروبا: ففي إنكلترا تحديدا ركّز معظم الباحثين جل اهتماماتهم على دراسة عمليات التواصل الثقافي (التثاقف) عند الشعوب الأفريقية، وما أحدثه من تغيير ثقافي. وفي هذا الإطار، دعمت دراسات "هرسكوفيتز" فكرة النسبية الثقافية، حيث تساءل: كيف يمكن أن نطلق أحكاماً تقييميّة على الثقافة البدائية، تلك الثقافة التي لا تعرف الكتابة. وأنّ كل فرد ينتمي إلى هذه الثقافة، يفسّر الحياة الإنسانية في حدود ثقافته الخاصة.

5- 2- النظرية التطوّرية:

هذه النظرية أو بالأحرى هذه التسمية ارتبطت بعلم البيولوجيا عند "شارل داروين" الانجليزي و"لامارك" الفرنسي في القرن التاسع عشر، ولقد اثرت في كثير من العلوم الانسانية كالفلسفة والاثنولوجيا، وهذه النظرية تنطلق من فكرة أساسية وهي أن المجتمع يشبه العضوية الحية (الجسم الحي) دون أن تهمل هذه النظرية التطورات التي تحدث للمجتمع. وهي بذلك تشبه تطور الجسم الحي، وتضيف هذه النظرية أنه حتى الصفات المعنوية مثل الثقافة والعادات والتقاليد والاعراف تورث كما تورث الصفات البيولوجية. ويعتبر مورغان أول من قسم المجتمعات تقسيما ينطلق من النظرية التطورية إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة التوحش، المرحلة البربرية، ثم مرحلة الحضارة.

ظهر في نهاية النصف الأول وبداية النصف الثاني من القرن العشرين، عدد من الأنثروبولوجيين الذين بدأوا يضعون نظرية خاصة لدراسة المجتمعات الإنسانية ومراحل تطوّرها، وموقع التغيير الثقافي في ذلك. وكان من أبرز هؤلاء، عالم

الآثار الإنكليزي (جوردن تشايلد)، والأمريكيان: (جوليان ستيوارد) و(ليزلي هوايت) الذي دعا إلى عدم استخدام النظم الأوروبية كأساس لقياس التطوّر، وضرورة إيجاد محكّات أخرى يمكن قياسها وتقليل الأحكام التقديرية بشأنها.

فقد أكّد "هوايت" في كتابه "علم الثقافة" المنشور عام 1949، أنّ من المهمّ ألاّ تقتصر النظرية التطوريّة على تحديد مراحل معيّنة لتسلسل النمو الثقافي، وإنّما لا بدّ من إبراز العامل أو العوامل التي تحدّد هذا التطوّر. ويمثّل عامل " الطاقة " في رأيه، المحك الرئيس لتقدّم الشعوب. أي أنّ المضمون التكنولوجي في ثقافة ما، يحدد كيانها الاجتماعي واتّجاهاتها الأيديولوجية.

وقد انقسم هذا الاتّجاه الثقافي التطوّري، إلى ثلاث مدارس تنادي كلّ منها بمجموعة من القضايا العامة.

المدرسة الأولى: تأخذ بالمسلمة القائلة بأن التاريخ إنّما يتجه في تتابع وحيد حين تتطور النظم والعقائد، استناداً إلى مبدأ الوحدة السيكولوجية لبني البشر. ومن هنا تتطوّر الثقافة في العالم الإنساني، حيث تتشابه الظروف العقلية والتاريخية.

المدرسة الثانية: تأخذ بالمنهج المقارن حين تعالج هذا التتابع التطوّري للنظم والمعتقدات الإنسانية، بعقد المقارنات المنهجيّة المنظّمة بين الشعوب والثقافات، في سائر المراحل المبكرة لأطوار الثقافة، بحثاً عن المصادر الأثنولوجية للسمات الثقافية.

المدرسة الثالثة : تأخذ بفكرة البقايا أو المخلّفات والرواسب الثقافية، على اعتبار أنّ هذه البقايا القائمة في المجتمع، إنّما هي شواهد من الناحية المنطقيّة، وأنّ المجتمع قد مرّ في مراحل أقل تطوّرا ومراحل أكثر تركيباً وتطوّراً.

وقد مهّدت أفكار التطوّرية الجديدة، إلى نشوء تخصّص أثنولوجي جديد يبحث في العلاقات المتبادلة بين البيئة الطبيعية والثقافة، وعرف فيما بعد باسم الأيكولوجيا الثقافية (Cultural Ecology). والتي تستند إلى النظرية البيئية التي يعود تاريخها إلى "هيبوقراط" اليوناني، ومن ثمّ إلى "مونتسيكو" الذي وضع أسس هذه النظرية (المدرسة) والتي يتبعها بعض علماء الأنثروبولوجيا في العصر الحديث. وتتلخص آراء هذه المدرسة، بأنّ العوامل الطبيعية للمنطقة، ولا سيّما الظروف المناخيّة، قد كوّنت المظهر الخارجي للأفراد، وعيّنت طراز حياتهم. وقضت على كلّ فرد لا يملك الصفات التي تتّفق وتلك البيئة.

ويعتمد الأيكولوجيون الثقافيون في تفسير التباين بين ثقافات الشعوب المختلفة، على ظاهرة التنوّع البيئي كما يهتمون بالكشف عن كيفية تأثير الثقافة مع ما يحدث في البيئة من تغيرات جذرية، على تكيف الفرد وتفاعله الاجتماعي.

وتتلخص وجهة نظرهم هذه، في جملة (التأثير القوي الطاغي للبيئة). وأنّ تأثر البيئة كبير على الثقافة في مجالات كثيرة. ويستشهدون على ذلك، بسكان الأسكيمو، وسكان أستراليا الأصليين، وتأثّر ثقافة كلّ من هذه الشعوب بالبيئة المحيطة. ولكن ثمة معارضون في العصر الحديث لهذه النظرية، لأنهم يرون أنّ كثيرا من البيئات المتشابهة تظم ثقافات وحضارات مختلفة.

5- 3- النظرية المادية:

تعدّ النظرية (المادية التاريخية) الركيزة الأساسية للفكر الماركسي ولكنّها لم تجد طريقها إلى الفكر الغربي، إلاّ بعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا عام 1917، حيث بدأت أعمال (فلاديمير لينين) قائد هذه الثورة، تترجم إلى اللغات

الأوروبية الرئيسة. وهذا ما أدى إلى النهوض الثوري في العديد من البلدان الأوروبية، ومن ثمّ تأسيس الأحزاب الشيوعية، ردا على الفكر الفاشي (الألماني والإيطالي) من جهة، وإيجاد الحلول للأزمة الاقتصادية العالمية التي خلقتها الرأسمالية آنذاك من جهة أخرى.

فقد أصبحت المادية الجدلية المنهج الأساس في العلوم الإنسانية، ولا سيّما في تفسير جوهر المجتمع الإنساني ومبادئ تطوّره. وهذا ما أظهر قيمة المادية التاريخي كفلسفة مؤثّرة وفاعلة، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية والفكر الإنساني، وفق منهج فلسفي يعتمد على الفكرة الثورية العلمية في تحليل الواقع وتفسيره.

وتنطلق الماركسية من طريقة الحصول على العيش في كلّ مجتمع، باعتبارها أساس بنيته. وذلك من خلال إقامة الصلة بين هذه الطريقة، وبين العلاقات التي يدخل فيها الناس ضمن عملية الإنتاج.

العلاقات الإنتاجية تشكل اذن الأساس الرئيس والقاعدة الحقيقية لكل مجتمع، فقد جاء في الموسوعة الفلسفية (السوفيتية) أنّ الماركسية تنظر إلى الإنسان على أنّه موجود اجتماعي. ويعتبر من وجهة النظر البيولوجية، أعلى مرحلة في مراحل تطوّر الحيوانات على الأرض. وبينما يكيّف الحيوان نفسه مع الطبيعة، فإنّ الإنسان يكيّف الطبيعة مع نفسه من خلال ما يقوم به من نشاط إنتاجي. والإنسان أيضا، لا يمكن أن يعيش بمعزل عن الناس الآخرين، وبالتالي فهو منصهر في ظروف اجتماعية محدّدة.

5- 4- النظرية المعرفية:

إنّ الانتقادات التي وجّهت إلى الاتجاه البنائي الوظيفي، بسبب اعتماده على سلوكات الأفراد الظاهرة وما يقوم بينهم من علاقات على أرض الواقع، وإغفاله الجانب الحركي (الديناميكي) في دراسة الثقافة الإنسانية، أدت إلى تبني نظرية جديدة في الدراسة تتناسب مع التغييرات الاجتماعية والثقافية والسياسية التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. ومن هنا برزت فكرة النظرية المعرفية في دراسة الثقافة الإنسانية، والتي تبحث في طرائق تفكير الناس وأساليب إدراكهم للأشياء، والمبادئ التي تكمن وراء هذا التفكير والإدراك، ومن ثمّ الوسائل التي يصلون بوساطتها إلى كلّ منهما . فهم أصحاب المجتمع، ومن العدل أن نتعرّف إلى أرائهم فيها.

كما جاءت النظرية المعرفية ردا على الماركسية، التي يقول فيها عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر "ميشيل فوكو": أنّها أثارت في نفسه الكثير من الاهتمامات، ولكنها أخفقت في إشباع هذه الاهتمامات إخفاقا شنيعا. بل إنّه ذهب إلى حدّ القول بأنّ الماركسية كانت تجتذب إليها الشباب، ولكنّهم كانوا يدركون بسرعة أنّها مجرّد نوع من أحلام المراهقة، التي تدور حول إمكان وجود عالم آخر أفضل من هذا العالم الذي نعيش فيه.

وقد أعطى هذا الاتجاه المعرفي مفهوما جديدا للثقافة وطبيعتها الفكرية الثقافية، باعتبارها تشكّل (خريطة معرفية إدراكية) كما قال "جيمس داونز" في كتابه " الطبيعة الإنسانية ". فالخريطة الإدراكية لأي شعب من الشعوب، تحتفظ بملامح عامة ومقوّمات أساسية وثابتة، ولكنها مع ذلك لا تخلو من بعض الاختلافات والتفاصيل الدقيقة من جيل إلى آخر، لا بل من فئة اجتماعية إلى فئة أخرى، وفي المرحلة الزمنية الواحدة. وهذا يعني أنّ لكلّ مجتمع، تصوراته الخاصة عن العالم والكون، تختلف عن تصور غيره من المجتمعات الأخرى.

تبلورت النظرية المعرفية في الدراسات الأنثروبولوجية الثقافية، في الستينات من القرن العشرين، ومن خلال مدرستين رئيسيتين : المدرسة البنائية في فرنسا، والمدرسة الأثنوجرافية الجديدة في أمريكا.

أ- المدرسة البنائية:

يعتبر ليفي ستروس من بين أبرز علماء الانثروبولوجيا ، حيث امتازت نظرياته بلعب دور هام في بلورت معالم الانثروبولوجيا الحديثة ومناهجها في التحليل. فقد تجاوزت نظرياته الحقل الانثروبولوجي لتصل الى مجالات اخرى في العلوم الاجتماعية والانسانية ، حيث يقول عنه "كليفرد غيرتز": أنه قد حقق ما كنت أرغب في حدوثه في مجال الانثروبولوجيا ، وذلك بجعله الانثروبولوجيا شأنا عقليا وفلسفيا، فهو قد استطاع ربطها بالاتجاهات الفكرية العامة والسائدة في العالم، أي أنه قد أخرجها من الميدان الإمبريقي الضيق...

لذلك يعد "ستروس" مؤسس المدرسة البنائية في الدراسات الثقافية الأنثروبولوجية. فهو يعرف النظرية البنائية (البنيوية) بأنها تقوم على التمييز بين الصورة والمضمون، بحيث تكمن أصالتها في طريق تصوّرها للارتباط بينهما. ولكن ما أخذ على ستروس هو أنّه أدرك المجتمع كقواعد لا كتصرّفات .. أي أنّه يصطنع لنفسه معقولية كاملة على أساس يردّ البشر والزمر الاجتماعية إلى وظيفة محدّدة، بدلاً من أن يبني هذه الوظيفة على علامات مشخصة يعتقدونها فيما بينهم.

ويأخذ مفهوم البنية عند ستروس طابع النسق (النظام)، حيث تتألف البنية من مجموعة عناصر، يمكن لأي تحوّل في أحدها أن يحدث تحوّلا ما في العناصر الأخرى. ولذلك يقول ستروس إنّ العبرة في دراسة الظواهر (النظم) الاجتماعية، إنّما هي للوصول إلى العلاقات القائمة فيما بينها. والدافع إلى ذلك، هو أنّ حقيقة الظواهر الاجتماعية ليست في ظاهرها كما تبدو عياناً للملاحظ، بل تكمن في مستوى أعمق من ذلك بكثير، ألا وهو مستوى دلالتها.

وإذا كان ستروس يعتبر (البنائية) منهجاً وليست نظرية أو فلسفة خاصة، فإنّه من جهة أخرى يحدّد هدف الأثنولوجيا بالكشف عن العمليات المعرفية (العقلية والإدراكية) عند الأفراد داخل المجتمعات الإنسانية، بغية الوصول إلى تفسير حول تعدّد الثقافات واختلاف بعضها عن بعض. وهذه العمليات تنشأ وتتبلور داخل العقل الإنساني من خلال التعلم، حيث يتعلمها الفرد منذ الصغر عن طريق اللغة، وتكوّن ما أطلق عليه (الأبنية العقلية، التي تشكّل الثقافات على أساسها. ولذلك، يمكن أن تتّخذ هذه البناءات الشكلية للتركيب اللغوي، نماذج يقتدي بها الباحثون في العلوم الإنسانية والاجتماعية، كما يمكن أن تتحقّق معها الدقّة العلمية عند دراسة الإنسان

لقد سعى "ليفي ستروس" إلى أن يربط بشكل منهجي، بين الدراسات اللغوية والاجتماعية والأثنولوجية، وكان لهذه المحاولة أصداء كبيرة وعميقة في الفكر الأنثروبولوجي التقليدي الخاص بالعلوم الاجتماعية المختلفة، بل وفي الدراسات الأدبية والإنسانية بوجه عام .

إنّ العلاقات الاجتماعية في أي نظام اجتماعي، لا يمكن أن تفهم إلاّ في إطار عملية التواصل والتبادل بين الأفراد الذين يشكّلون هذا النظام الاجتماعي. وذلك عن طريق دراسة العمليات العقلية التي تحكم تفكير هؤلاء الأفراد، وتوجّه سلوكاتهم وعلاقاتهم ضمن البنية التي تؤلّف ثقافتهم .

ويعترف" ليفي ستروس" صراحة بديناميكية البناءات وبأن أنماطها المختلفة تؤثر في بعضها البعض حيث يقول في كتاب "الانثروبولوجيا البنائية": إن الانثروبولوجي يكشف في المجتمع عن مجموعة بناءات تنتمي إلى أنماط مختلفة . فنسق القرابة يعتبر وسيلة لتنظيم الأفراد حسب قواعد معينة، أما التنظيم الاجتماعي فإنه يأتي بقواعد أخرى، وكذلك كان التسلسل الطبقي أو التفاوت الاقتصادي ، فإنه يمدنا بقواعده الخاصة به ، وكل هذه البناءات المنظمة يمكن أن تنظم بشرط الكشف عن العلاقات التي تربطها وهي على أي حال تؤثر في بعضها البعض.

ب- المدرسة الأثنوجرافية الجديدة:

ظهرت هذه المدرسة في أمريكا مع بدايات الستينات من القرن العشرين، مترافقة مع المدرسة البنائية سابقة الذكر. وتستند هذه النظرية إلى نتائج علم اللغة، والعلاقة المتبادلة بين علم اللغة والأثنولوجيا، والاستفادة بالتالي من هذين العلمين في تبنّي منهج متكامل للبحث في العلوم الاجتماعية .

وقد برز اهتمام الأمريكيين بالصلة بين اللغة والثقافة، منذ عام 1964 حين اقترح "ديل هايمز" مصطلحا جديدا لتلك الصلة، يتمثّل في (الأنثروبولوجيا اللغوية) والذي يعتمد على دراسة اللغّة في إطارها الاجتماعي .

وانطلاقا من هذا المصطلح، بدأ الأنثروبولوجيون اللغويون المعاصرون يهتمون بتطوير المدخل اللغوي في دراسة الثقافة، بحيث تؤدّي دراساته عن أصل اللغة ومراحل تطوّرها، إلى مجالات دراسيّة جديدة حول تطوير الأسس الاجتماعية والإعلامية، التي تقوم عليها الحياة الإنسانية الحاضرة والمستقبلية.

ولذلك قام عدد من الباحثين الأنثروبولوجيين في أمريكا، بإجراء دراسات لغوية بقصد تأكيد علمية دراسة الثقافة الإنسانية، وذلك من خلال وصف الثقافة وتحليلها وفقا لتصورات الأفراد ومفاهيمهم، التي تتجلى في سلوكاتهم اللغوية .

واستنادا إلى هذا المنهج التحليلي، أظهرت نتائج دراسات أثنوجرافية متعدّدة، اختلافات الأسس والمعايير بين الشعوب، والتي يصنّف الأفراد بموجبها في المجتمعات المختلفة مفاهيمهم واتّجاهاتهم، فيما يتعلّق بتصنيف الأشياء المختلفة، كالألوان أو الطعام أو الحيوان أو النبات، وغيرها من مكوّنات البيئة المحيطة. وهذا يعني أنّ الأثنوجرافيا الجديدة، تسعى إلى دراسة الثقافة من خلال وصفها وتحليلها، كما يراها أصحابها، وليس كما يراها الباحث الأنثروبولوجي، وذلك بالاعتماد على تحليل اللغة التي يستخدمها أفراد المجتمع.

لقد برز اهتمام الأثنوجرافيين الجدد منذ بداية السبعينات من القرن العشرين، بالدراسات الميدانية لجمع المعلومات عن اللغات والثقافات المرتبطة بها، ونشرت كتب كثيرة حول ذلك. إلاّ أنّ هذا الاتجاه على الرغم من أهميته في دراسة الثقافة – واجه نقدا من بعض الأنثروبولوجيين الأمريكيين ذاتهم، ولا سيّما "جيلفورد جيرتز" الذي دعا إلى ما يسمى الآن بـ(الأنثروبولوجيا الرمزية)، وطالب أن يهتمّ الباحث بالمعنى والرمز المصاحبين للممارسات الثقافية، بدلاً من الاعتماد على ما يقوله الأفراد عن ثقافتهم. ورأى أنّه ليس من المهم مطلقا أن نسعى إلى تأكيد تكامل العناصر الثقافية، لأنّها ليست إلا مجموعة منفصلة من العواطف والمعتقدات والقواعد، التي يتناقض بعضها مع بعض في أحيان كثيرة

6- منهج البحث والتقنيات في الأنثروبولوجيا:

6-1- الأنثروبولوجيا بين النظرية والتطبيق:

علمية الأنثروبولوجيا رغم حداثتها تدفع الأنثربولوجيين إلى التوغل في العلاقة بين العلم من جهة، ومن جهة أخرى بين الوسائل والأدوات والمناهج التي يكتسبونها ويطوّرونها من خلال تطبيقاتها حتى تواكب المستجدات.

2-6- الباحث الأنثروبولوجي والميدان:

من أجل تحقيق النتائج المتوخاة لدى الباحث الأنثروبولوجي يتعين أن تتوفر في هذا الباحث عدة شروط لتتكون لديه الشخصية المقتدرة والكفاية اللازمة للضلوع في هذا الميدان، وأهم هذه الشروط:

أ- أن يكون ملما بالمعلومات اللازمة في مجالات الأنثروبولوجيا: لذا فإنّ قراءته للتراث الأنثروبولوجي من شأنه أن يصقل فكره ويمهد أمامه السبل لكي لا يقع في الأخطاء التي وقع فيها من قبله.

ب- أن يكون لديه هدف محدد يريد بلوغه: ولا شك أن الأنثربولوجيا كشأن أي علم آخر يعتمد على المنهج العلمي لا تقبل الاعتباطية في البحث ولا تترك قضاياه للصدفة، أي أن يكون الباحث الميداني الأنثروبولوجي ملما إلماما تامّا بالمعلومات الأنثروبولوجية، وأن يكون لديه هدفا علميا واضحا لموضوع بحثه .

ج- أن يعيش ضمن الجماعة التي يدرسها: وهذا الشرط يتعلق خاصة بالأنثروبولوجي الذي يمارس منهج الإثنوغرافيا في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، إذ لا يمكن أن يكون الباحث إثنوغرافيا إلا إذا كنت قريبا جدا من الظاهرة الثقافية التي يريد وصفها وتحديد معالمها وتقفي سيرورتها. إذ الأساس الهام في الدراسات الأنثروبولوجية بميادينها المختلفة، يتمثّل في إقامة الباحث في مكان دراسته، يعايش الجماعة كما هي في الواقع، ويحصل على كل ما يريده من علاقات، قيم، عادات وأنماط الحياة التي تحدّد طبيعة هذا المجتمع وهويته الثقافية.

د- أن ينوع طرق البحث من أجل ضمان الوصول إلى الهدف المنشود: فقد تكون طريقة ما ناجعة في دراسة ظاهرة ما لكنها لا تفي بالغرض في ظاهرة أخرى، وهذه المسألة بالنسبة إلى الأنثروبولوجيا تعتبر جوهرية، إذ على الباحث تطبيق عدد من الأساليب، في جمع المعلومات وتبويبها وتفسيرها.. أي أنّ عليه أن يستخدم طرائق عدّة مختلفة من طرائق البحث الميداني، لأنّ بعض الطرائق التي يمكن أن تصلح لدراسة ظاهرة أنثروبولوجية محدّدة، قد لا يصلح تطبيقها في دراسة ظاهرة أخرى.

هـ - أن ينوّع أشخاص مصادره: دون أن يغفل أي شخص مهما كانت صفته أو سنه أو وضعيته أو مكانته الاجتماعية والثقافية

و– أن يستثمر جميع الفرص المتاحة وفي جميع الأوقات: إن وسائل الباحث اليوم في ضبط المعلومات كثيرة، ومن الأحسن أن يستثمر أبسطها وأكثرها طواعية، فالقلم والورق قد يعتبران كافيين في تسجيل الملاحظات والأجوبة المتاحة، لهذا فإن استثمار الفرص هو السبيل الوحيد للحصول على أكبر عدد من المعلومات.

3-6- تقنيات البحث الميداني:

ينتهج الباحث الأنثروبولوجي منهجا محددا في بحثه، ويستخدم مجموعة من الوسائل والأدوات للحصول على بياناته ... ويتبع مجموعة من الخطوات قبل القيام بالبحث وفي أثنائه.

كل بحث أنثروبولوجي يبنى على أساسين:

أولا: الأساس النظري: كل بحث بحاجة إلى مقاربة نظرية تفسر وتحلّل موضوع البحث ضمن نسق علمي منسجم.

ثانيا: الأساس الميداني أو التطبيقي: يتمحور في الجانب العلمي لموضوع البحث وسيرورته تتوازى وتتقاطع والجانب النظري.

ولكي يتحقق الانسجام ما بين النظري والميداني على الباحث تبني منهج سليم. والمنهج لا يعني فقط الخطوات التي على الباحث أن يتبعها من أجل الوصول إلى النتائج العلمية، بل إن المنهج يهم بالأساس الآليات الفكرية التي يعتمد عليها الباحث في عمله.

6-3-1- مراحل سير البحث الأنثروبولوجي:

أ_ الدراسة الاستطلاعية:

الدراسة الاستطلاعية تساعد الباحث على تفادي الانطلاقة الخاطئة، كما تساعد على تفعيل ألفة الباحث مع بحثه... وعلى الباحث الأنثروبولوجي مراعاة الخطوات التالية:

ب_ تحديد الاطار النظري للبحث:

ويتضمن تحديد الاشكالية وأسباب اختيار موضوع البحث وأهدافه:

حين يشرع الباحث الأنثروبولوجي في انجاز بحثه عليه أن يحدد تساؤله الأساس وكذا التساؤلات الفرعية المنبثقة عنه. وكذا عن الأسباب الموضوعية التي دفعته إلى اختيار موضوع بحثه وماهي الأهداف المسطرة لذلك. ولا يتأتى ذلك إلا إن ضبط فرضيات بحثة وأبعادها المختلفة والمؤشرات المرتبطة بها.

ت_ تحديد الاطار الميداني التطبيقي للبحث:

يتضمن تصميم البحث والذي يحوي خطة عمل مبدئية مكتوبة بغية ضبط سير البحث لتحقيق الأهداف المسطرة مع ما يتلاءم وطبيعة الاشكالية.

ويحدد الباحث الاطار المكاني والزماني لبحثه. ويعين مصادر ومراجع المعلومات اللازمة لبحثه (البحث الببليوغرافي) وأساليب وطرق جمع البيانات والمعطيات.

ويرتبط نوع ومصادر البيانات والمعطيات بالتساؤلات المطلوب معالجتها وأهداف البحث. وبالتالي فإنه يتم أولا تحديد كافة البيانات والمعطيات المطلوبة ثم يشرع الباحث بعد هذا في معالجة وتحليل البيانات والمعطيات، ويتم ذلك بتطبيق المنهج والأدوات والتقنيات الملائمة. وفي الأخير يقوم بتأويل وتفسير النتائج.

وهذا دون أن يغفل الباحث مدى التداخل والتفاعل بين المستويين النظري والميداني التطبيقي.

6-3-2- تقنيات البحث الأنثروبولوجي:

أ_ الملاحظة:

تعتبر الملاحظة تقنية من تقنيات جمع البيانات وهي مراقبة مقصودة تستهدف رصد أية تغيرات تحدث مع موضوع الملاحظة وتحتاج هذه الطريقة، إلى أن يكون الباحث ملمّا بأهداف بحثه وبطبيعة المجموعة المدروسة. وأن يتمتّع بقدر كبير من الاهتمام والوعي، بأبعاد الظاهرة التي يقوم بدراستها، وكيفيّة رصد هذه الأبعاد بدقّة وموضوعية، حيث يتوقّف

على ذلك صدق المعلومات، وفائدتها العلميّة. وباستخدام الملاحظة لا يكتفي الباحث بوضع شبكة ملاحظة وجمع المادة العلمية للحقائق فحسب بل يغوص لاستقصاء الحقائق من أجل الوصول إلى المعاني العميقة والخفية.

لهذا ينبغي على الباحث الأنثروبولوجي مراقبة أو معاينة أفراد الشعب الذي تجري عليه الدراسة، في أثناء تأدية أعمالهم اليوميّة المعتادة. وكذلك حضور المناسبات العامة التي يقيمها أبناء هذا الشعب، كالحفلات والاجتماعات (الدينية أو الشعبية) وحلقات الرقص، ومراسم دفن الموتى، وغيرها .. ورصد الحركات والتصرّفات، وتسجيل ما يجدر تسجيله من حوارات وأغان وتراتيل، وما إلى ذلك من التعبيرات التي يبديها الأفراد في هذه المناسبات.

ويستخدم الباحث الملاحظة في تقصي طريقة التواصل مع المبحوثين ومختلف الانفعالات التي تنتابهم ، ويتم ذلك باستخدام أدوات ووسائل جمع المادة التي لابد أن تتعدد وتتنوع بحيث تشمل الأدلة (جمع دليل)، وسجلات الملاحظة، وكشوف البحث، وأجهزة التسجيل الصوتي والفوتوغرافي. هذا إلى جانب إجراء المقابلات، والاستعانة بالإخباريين.

ونشير في هذا الصدد إلى الدور الجوهري الذي يقوم به الإخباريون في مساعدة الباحث للحصول على المادة من جهة، ومن جهة أخرى في الولوج والتوغل أكثر في مجتمع البحث، وعليه، يجب على الباحث أن يختار الإخباريين بكل موضوعية ودقة. كما يقتضي منه هذا الاقامة فترة لا تقلّ عن (7-8) أشهر، في المجتمع المدروس، وتفهّم ما يدور فيه. فالباحث المحترف لا بد وأن يغرق نفسه في حياة الناس، وذلك لأنّ البحث لا يتم إلا بالإقامة الطويلة لشهور عديدة في المجتمع المحلي. كما يجب أن يحسن الباحث لغة التخاطب بلغة الأهالي، حتى وإن كان السلوك الذي يشاهده غير لفظي. والإقامة في مجتمع البحث، تعني ملاحظة دقائق الحياة اليوميّة كما تجري بين الناس .. وهكذا يرى الباحث عناصر الحياة اليومية تتكرر مرات ومرات أمامه، وتصبح من الأمور العادية بالنسبة له..

ب_ طريقة المشاركة

المشاركة تقتضي أن يقوم الباحث بمشاركة الأفراد أو الجماعة المدروسة في كلما يقومون به من أعمال أو يمارسونه من أنشطة وطقوس اجتماعية وذلك تقرّباً منها وكسباً لودّها، والدخول بالتالي إلى أدقّ التفاصيل في ممارسات أفراد هذه الجماعة، الخاصة والعامة. كأن يمارس الباحث بعض الطقوس الدينية أو الاجتماعية، أو يقوم ببعض الأعمال التي تعدّ من النشاط اليومي للجماعة، ولا سيّما الأعمال اليدوية، الفردية والجماعية.

وعلى الباحث أثناء مشاركته لمجتمع البحث وخاصة في اللحظات الأولى مراعاة خصوصية الأفراد فالبحث كثيرا ما يتأثر بما يتركه الباحث من انطباع أولي لدى المبحوثين.

كما أنّ الملاحظة بالمشاركة مهمّة لاختيار المعلومات الحقلية اللازمة لتقييم الشواهد التي جمعت بالوسائل الأخرى. فالجدول الزمني للبحث الحقلي، يتضمّن التداخل بين الملاحظة بالمشاركة، والأساليب الأخرى لجمع المادة. ومن خلال معايشة الباحث الفعالة لمجتمع بحثه يكتسب تدفق في المعلومات مما يخدم مسار بحثه ويجعله موضوعيا.

ت- طريقة الاستمارة (الاستبانة)

وهي طريقة تترك الفرصة للمستجوب لكي يعبر عن رأيه دون تدخل أي أحد، إذ تكتب الأسئلة على ورقة غير اسمية فتطرح تلك الورقة على عينة من الأشخاص لكي يجيبوا على ما فيها من أسئلة وبكيفية فردية، والاستمارة عادة تتألف من ثلاثة أصناف من الأسئلة:

الصنف الأول: الأسئلة المغلقة: وهي التي لا تحتمل إلا جوابا واحدا فقط بين جوابين أو عدة أجوبة، ومن أمثلتها المشهورة تلك الأسئلة التي تطالبك بأحد شيئين، نعم أو لا، صحيح أو خطأ، وهناك من أسئلة نصف مغلقة، وهي التي تتركك بين خيارين أو عدة خيارات أثناء الجواب...

الصنف الثاني: الأسئلة المفتوحة: وهي التي يكون الجواب عليها مفتوحا على عديد الاحتمالات، ويحصل فيها الباحث على أجوبة متطابقة أو متقاربة لكنها تختلف في الصياغة...

الصنف الثالث: الأسئلة المركبة: وهي التي تتألف من النوعين السابقين بحيث يبدأ السؤال بالمغلق ثم يردف بسؤال مفتوح، كقولنا مثلا: هل أنت متشائم أم متفائل؟. إذا كان الجواب بنعم فلماذا أنت متشائم؟.

وترمي الاستمارة أو الاستبانة إلى التحقق من مدى صحة أو بطلان الفرضيات. وترمي غالبا إلى اكتشاف نواحي غامضة لا يمكن الوصول إليها إلا بالاتجاه نحو عينة من الأفراد داخل الجماعة المدروسة، ويقتضي نجاحها أن يعد الباحث أسئلتها إعدادا جيدا. مما يخدم البحث.

وتجدر الاشارة بأنّ الاستمارة تساعد الأنثروبولوجي المختص، في التحقّق من النقاط التي يكون قد أهملها...

وننوه بأنّ نجاح الاستمارة في البحث الأنثروبولوجي كغيره من البحوث يكون دوما مرهونا بحسن اختيار العينة:

ث. العينة:

يتم اختيار مجتمع البحث أو العينة ومفرداتها بما يتلاءم وطبيعة تساؤلات البحث وأهدافه. والعينة هي جزء من المجتمع أو هي عدد من الحالات التي تؤخذ من المجتمع الأصلي وتجمع منها البيانات بقصد دراسة خصائص المجتمع الأصلي. وبهذه الطريقة، فانه يمكن دراسة الكل عن طريق دراسة الجزء بشرط أن تكون العينة ممثلة للمجتمع المأخوذة منه. وتعرف أيضا بأنها نموذجا، يشمل جانبا أو جزءا من وحدات المجتمع الأصل المعني بالبحث، تكون ممثلة له، بحيث تحمل صفاته المشتركة، وهذا النموذج أو الجزء يغني الباحث عن دراسة كل وحدات ومفردات المجتمع الأصل، خاصة في حالة صعوبة أو استحالة دراسة كل تلك الوحدات.

إذن، بعد جمع المعلومات والبيانات من مجتمع البحث خاصة بعد استخدام تقنية المقابلة، وبعد بناء الموضوع نختار العينة الممثلة لتركيبة المجتمع الكلي ذاته، وينبغي أن تكون عينة البحث

منسجمة مع إشكالية البحث وفرضياته والأهداف المتوخاة منه، إذ الهدف من استخدام العينة هو بناء نماذج مصغرة من المجتمع الكلي بغية الوصول إلى نتائج قابلة للتعميم على المجتمع المستخرجة منه ويرتكز الباحث على أسس موضوعية عند اختياره العينة الممثلة وإلا تعذر الوصول إلى نتائج موضوعية.

ج_ طريقة الحالة الفرضيّة:

تقوم هذه الطريقة على بناء افتراضات حول عناصر لظاهرة اجتماعية أو ثقافية مثلما هو الحال في العالم الافتراضي، ويسعى البحث إلى إثباتها والتحقّق منها، حيث لا تظهر جماعة ما هذه العناصر إلاّ في حوادث أو حالات معيّنة.

وبناء على ذلك، تسعى هذه الطريقة إلى فصل حالات في حياة الناس تبعاً لأشخاص وعلاقات وحوادث فرضية تتّفق مع النماذج السائدة في ثقافة الجماعة، والتي يستخدمها الباحث لإدارة المناقشات وتوجيهها، مع أفراد الجماعة الموضوعة تحت الدراسة...ولذلك، فعندما تكون الحوادث مصطبغة بمعنى غيبي سحري مشؤوم، مثل الولادة، أو عندما تتضمّن المسائل الاقتصادية وقائع، لا يريد الفرد أن يكشف عنها إذا كانت تعنيه أو تعني شخصاً آخر، يمكن أن تجري المناقشة بحرية إذا لم يكن الشخص المعني موجوداً.

إنّه لمن المدهش أن يتحوّل الحديث – في أغلب الأحيان - عن حالات وأشخاص فرضيين، إلى مناقشة حالات وأشخاص حقيقيين، ولا سيّما في حالة وصف الحوادث التي مرّت في تجربة المُخبِر نفسه، وتتبيّن قيم الثقافة وأهدافها، في آرائهم حول تقييم المعضلات الفرَضيّة، التي يطرحها أحد أفراد الجماعة

إنّ النظام في ميدان الأنثروبولوجيا عامة، وفي الميدان الثقافي منها خاصة، يحتفظ بقيمته في الدراسة طالما يقوم بوظيفته، في حياة أولئك الذين يستخدمونه بصورة مُرضيَة .. وهذا يقود إلى النقاط التالية :

1- يعدّ التصنيف خطوة أولى هامة في دراسة المعلومات، ولكن لا ينبغي أن يؤخذ غاية بحدّ ذاته.

2- يجب أن يؤخذ في الحسبان عامل التنوّع عند تصنيف المعلومات، بحيث تتمتّع التصنيفات بمرونة لا تتمتّع بها التصنيفات المبنيّة على مفهوم (النموذج) .

3- إنّ تشكيل (اختراع) مجموعة زمر لظاهرة معقّدة، مبنية على معيار وحيد، يعدّ مبالغة في تبسيط المعلومات، تؤدّي إلى تشويه قيمة الأصناف التي تنشأ عنه .

4- إنّ بناء التصنيف على أحكام قيمة، إنّما هو استخدام معيار لا يصمد أمام اختبار التحليل العلمي، الذي يأخذ الوقائع جميعها في الحسبان .

5- وأخيراً، تعتبر هذه النقاط، الحدود التي يمكن الحصول – من خلالها- على تصنيف مقبول للظواهر.

المرجع : الدكتورة شوشان الزهرة، دروس في الانثربولوجيا ، السنة الاولى جذع مشترك علوم اجتماعية، جامعةالبويرة ، 2021-2020 .